



ما من شك أن لقصيدة البردة للبوصيري أثراً كبيراً ظل ماثلاً للشعراء على اختلاف منازلهم، فقد استمروا ناظمين ومتأثرين ببهاء موضوعها إلى يومنا هذا، ولا سيما أن البوصيري مزج فيها بين حب المسلمين لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وشعائر الدين الإسلامي والأمكنة المقدسة مزجاً يكاد يصل إلى حد الاتحاد التام، ونحن لا نكاد نجد مسلماً من المسلمين لا يذوب وُجداً عند هذه العناصر الثلاثة.



د. يحيى عباينة (*) - الأردن

ثلاثية من ماء زمزم قراءة وعرض وتحليل

قد نالت شهرة واسعة بين مثيلاتها من القصائد التي عارضتها لشهرة قائلها التي طبقت الآفاق، ولغة الغنية التي توهجت فيها النزعة الوجدانية التي وصلت إلى درجة الوله والذوبان، وهي أمور تمكن منها أحمد شوقي تمكناً كبيراً من تسخير الطاقات الكامنة في اللغة المستعملة.

وقد تمكن الشاعر الدكتور عودة أبو عودة من استلهاهم قصيدتي: البردة، ونهج البردة؛ استدعاء للشكل والمضمون في أثناء موسم الحج لعام

ومن هؤلاء الشعراء الذين صاغوا هذه العناصر الشاعر الدكتور عودة أبو عودة، الذي نظم مطوّلته التي وصل عدد أبياتها إلى أكثر من ثمانين بيتاً، تعدّ واحدة من المعارضات الكثيرة للقصيدة الأولى التي تسمى البردة، والصورة المعارضة الأولى التي تسمى: نهج البردة لأمير الشعراء أحمد شوقي. ومما لا شك فيه أن قصيدة «نهج البردة» التي مطلعها:

**ريم على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم**

(*) أستاذ اللغويات - جامعة مؤتة - الأردن.

قلناه عند الحديث عن بيت حسن الأمrani.

ثم دأب الشعراء على إتمام قصائدهم على هذا الوزن والقافية والموضوع، لتكون ثلاثية أخرى من ضمن الثلاثيات التي كتبها الشعراء، غير أنه لم يتسن لي الاطلاع على نصي الشعارين: الأمrani ونبيلة الخطيب، إلا بما زودني به الشاعر الدكتور عودة أبو عودة

يتخذ الشاعر عودة أبو عودة من مناسك الحج سلسلة من الأحداث التي يوظفها في القصيدة من أجل الخروج بنص يحمل طابعاً قصصياً يعتمد على سرد الأحداث، ويتمثل بالمناسك التي يؤديها الحاج عند أدائه تلك الفريضة العظيمة، فهو ينتقل بالقارئ من الطواف إلى السعي، وصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب ماء زمزم، ولا ينسى في غمرة هذه المشاعر أن يذكر بعضاً من الترابطات التاريخية والدينية التي ترتبط بتلك المناسك، كقصة سعي «هاجر» بين صخرتي الصفا والمروة بحثاً عن الماء، ثم عند رجوعها إلى صغيرها «إسماعيل» النبي عليه السلام، وجدت ماء زمزم قد انبجس من تحت قدمي سيدنا إسماعيل.

وبعد أن يذكر الشاعر هذه المناسك التي يقوم بها الحاج في أثناء

أداء فريضة الحج، يعود بالاعتذار للنبي الكريم هادي هذه الأمة عن تقصير أمته في التمسك بسنته الغراء، فالشاعر يرى أن المسلمين قد تركوا السنة النبوية، ومن هنا فهو يعتذر لهم من النبي الكريم، ويبين أنهم أمة مجيدة، سرعان ما تعود إلى الحق والصرات المستقيم، ولذا هم يطعمون بمغفرة الله تعالى وعفوه.

(٢٠١١هـ/٢٠١١م) ونظم قصيدته معارضاً إياهما، واستطاع أن يجد فيها معاني يستظل بها ليس بعيداً عن دلالاتهما التي اتخذها مادة لغوية تعبر عن عشق خاص لا يبتعد عن عشق البوصيري أو أحمد شوقي، وصاغ ذلك ضمن مباراة شعرية ثلاثية اشترك فيها مع الشاعر حسن الأمrani، والشاعرة نبيلة الخطيب، معارضين قصيدة البردة للبوصيري أو نهجها لأحمد شوقي، فقد أرسل لهما الشاعر د. عودة مطلع قصيدته:

ماذا وقوفكما في البان والعلم

والناس من كل فج في ذرى الحرّم

فجاءه رد الأمrani بيتاً من الشعر:

أرسل قلوبك تبلغ منتهى السّلم

وما قلوبك غير الدمع في الظلم

وهو رد يستوحي معناه من الناحية العقدية، دون أن يكون له من معارضة البردة أو نهجها إلا الناحية الفنية، فقد جاء النص موازياً للقصيدتين ولقصيدة عودة أبو عودة من حيث الوزن والقافية مشتركاً معها في حركة الروي أيضاً.

كما جاء رد الشاعرة نبيلة الخطيب ثلاثة أبيات على الوزن نفسه والقافية إياها:

وما ارتحالك فرداً زائر الحرّم

وصاحبك على شوق من الضّرّم

أما تواعدت الأرواح ذات ضحى

على الوفاء بعهد غير منقّصم

عهد زرعناه فاخضرت جوانحنّا

قد خطّ بالدمع لا بالحبر والقلم

ولا يختلف ما يمكن أن نقوله في هذه الأبيات عما



د. عودة أبو عودة



ويختتم الشاعر قصيدته الطويلة التي بلغت ثمانين بيتاً بحث المسلمين على العودة إلى طريق الدين القويم، والتمسك بأوامر الله تعالى ورسوله العظيم، والفرار إلى الله تعالى، فهو الذي يثبت القلوب والأقدام عند الجهاد.

«بعض الظواهر الفنية في القصيدة»

ومن أبرز الظواهر الفنية التي

نلاحظها في قصيدة «من ماء زمزم» التناس، سواء أكان هذا التناس مباشراً أم غير مباشر، إذ يمكننا أن نلمس عناصره من خلال عدد ليس قليلاً من أبيات القصيدة، فالشاعر متأثر بالقرآن الكريم في عدد من الأبيات، وهو متأثر متوقع منه، فهو يتحدث عن مناسك عظيمة وهي مناسك الحج، ومن هنا فمِن الطبيعي جداً أن يتأثر بعناصر هذا الدين، والقرآن الأصل النصي العقدي لديننا وعقيدتنا، وفيه أوامر ونواه كثيرة تأخذ جوانب متعددة من حياتنا الدينية وأعمالنا اليومية، ويظهر لنا الاقتباس من القرآن الكريم في قول الشاعر:

الأول (الله)، عهداً غير مبتدأ

والآخر (الله)، عهداً غير مختتم

فهذا البيت يحوي تناساً غير مباشر مع قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، (الحديد: ٣)، ومن المواضع التي يظهر لنا فيها الاقتباس قول الشاعر:

هل (طهراً بيتي) المقصود، قد فصلت

بحكمة الله بين النور والظلم

ولقد جاء الشاعر بهذا البيت في حديثه عن أسرار القدوم إلى الكعبة المشرفة، والطواف حولها، فهو يتساءل هاهنا عن السر العظيم الكامن وراء مجيء

الناس بهذه الأمواج إلى بيت الله الحرام، فهل نسبة البيت إلى الله هو السر؟ يرى الشاعر أن هذا السبب من أعظم الأسباب التي تدعو الناس إلى المجيء إلى الكعبة المشرفة للطواف بها. والبيت السابق يلتقي مع آية قرآنية، وهي قوله تعالى: ﴿...أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، (البقرة: ١٢٥).



ويظهر لنا أيضاً الاقتباس من القرآن الكريم في قول

الشاعر:

إذ يرفع البيت من أدنى قواعد

وابن يسانه بالعزم والهمم

فصدر البيت يلتقي مع نص آية قرآنية كريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، فالأقتباس في هذه الآية الكريمة اقتباس غير مباشر.

ومن مواضع الاقتباس أيضاً قوله:

إن تنصروا الله ينصركم فإن به

عند الجهاد ثبات القلب والقدم

فهذا البيت فيه اقتباس واضح من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، (محمد: ٧)، ولقد بين الشاعر في عجز البيت السابق ما يجنيه المؤمن من نصرة الله تعالى، فالله يثبت القلب والقدم عند الجهاد. ومن مواضع الاقتباس القرآني قول الشاعر في البيت الأخير:

فروا إلى الله إني ناصح لكم

فوحده الله رب العرش وإقلم

فهذا البيت متأثر بقوله تعالى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، (الذاريات: ٥٠).

وكما أشرنا من قبل، فإنه من المتوقع من الشاعر أن يتأثر بالقرآن الكريم؛ فهو في مقام يدعو إلى ذلك، وما يعرفه الناس عنه أنه يتخذ من الخلق الرفيع جزءاً من العقيدة نفسها، خصوصاً أن القرآن قد ذكر عدداً من مناسك الحج، وذكر كثيراً من الأمور المتعلقة بالبيت الحرام كبناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة المشرفة. ولا يبتعد الشاعر عن الاقتباس من القرآن الكريم إلا وهو يجعل منه مع الحديث الشريف جزءاً من كلامه، حيث ذكر في قصيدته:

قال اشهدوا يا عبادي قد غفرت لهم

فَهُمْ ضِيُوفِي فِي (بَيْتِي) وَفِي حَرَمِي
فهذا تأثر بالحديث القدسي الذي يسأل فيه الله تعالى عن سبب مجيء المؤمنين إلى عرفة يوم التاسع من ذي الحجة، فيجيب الملائكة بأنهم جاؤوا من أجل مغفرة الله تعالى، ومن أجل رحمته، فيقول سبحانه: فإنني أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فمن هذا الحديث القدسي الشريف انطلق الشاعر في بيته السابق، حيث جعل من هذا النص طريقاً لبيان الأجر العظيم الذي يناله المسلم بعد وقوفه بعرفة. ومن الاقتباس من الحديث الشريف قول الشاعر:

أيام أكل وشرب في صعيد مني

عنوانها نَسَمَاتُ الْوُدِّ وَالرَّحْمِ

فهذا الشطر من البيت يلتقي مع نص حديث شريف، يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «أيام مني أيام أكل وشرب»، غير أن الشاعر قد أعاد ترتيب الحديث من أجل أن يحافظ على نسق القصيدة الموسيقي، ولا يخرج بها عن جادة الوزن. ويتعدى الشاعر في اقتباسه من القرآن والحديث الشريف ليتخذ من

قصائد المديح النبوي مصدراً للإلهام، ومنبعاً لبعض الصور الشعرية، كما في عجز بيت من قصيدته:

يَطْوِفُونَ وَعَيْنُ اللَّهِ تَرْقُبُهُمْ

«ما بين مستلم منهم وملتمزم»

جعل الشاعر عَجَزَ البيت بين علامتي تنصيص في إشارة منه إلى أنه مأخوذ من قصيدة أخرى، وهي قصيدة «ريم على القاع»، حيث يقول أحمد شوقي فيها:

فكل فضل وإحسان وعارفة

ما بين مستلم منهم وملتمزم

ولا ينسى الشاعر أن ينتج تناسلاً بين قصيدته وقصيدة البردة للبوصيري، وهي القصيدة التي ألهمت الشعراء عبر قرون مضت عناصر شتى في المديح النبوي، إذ يقول الشاعر في بيت من أبياته:

لواطلعت على أسرار أنفسهم

«مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم»

فَعَجَزَ البيت يلتقي مع قول البوصيري:

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وليس أدل على رغبة الشاعر في الإحالة على النص الأصلي مظهراً تقاطعه مع الأصل، أنه جعله بين علامتي تنصيص.

«المباراة الثلاثية في الشعر العربي»

لا يسجل هذا النوع من المباريات الشعرية الثلاثية حضوراً كبيراً في التراث العربي القائم على الوجدانيات الإيجابية، بل جل ما نجده في مثل هذا الأمر واقع في فن النقائض وإن لم يلتزم المعيار الصارم للقافية الشعرية، كما في هذه النصوص التي كتبها الدكتور عودة





أبو عودة، وحسن الأمrani، ونبيلة الخطيب، حتى في النقائض الثنائية أحياناً، فقد غيّر جرير من حركة الروي في قصيدته:

لَمِن الدِيارِ كأنَّها لم تحلِّ

بين الكناس وبين طلح الأعزل

أخزى الذي سَمَك السماء مجاشعاً

وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

فجاءت حركة الروي مكسورة، وهي القصيدة

التي ناقض فيها قول الفرزدق:

إنَّ الذي سمك السماء بنى لنا

بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول

بيتاً بناه لنا المليك وما بنى

ملك السَّماءَ فإنَّه لا يُنقل

بيتاً زُراة مُحْتَبٍ بفنائِه

ومجاشعُ وأبو الفوارس نهشل

وحركة الروي في هذه القصيدة

هي الضم، ومما يجدر ذكره أن هاتين

القصيدتين من أول ما أثار معركة

النقائض بين الشاعرين الأمويين

جرير والفرزدق.

وأما المناظرة الثلاثية، فلا نكاد

نعرف لها إلا نظائر محدودة، في

النقائض أيضاً، ولعل أهمها ما هجا

فيها الأخطل جريراً بقوله:

أخسأ كليب إليك إن مجاشعاً

وأبا الفوارس نهشلاً أخوان

قوم إذا خطرت عليك قرومهم

تركوك بين كلاكل وجران

فأجابه جرير في نقيضة على الروي نفسه:

لَمِن الدِيارِ ببرقة الريحان

إذ لا نبيع زماننا بزمان

هجا فيها الأخطل والفرزدق معاً، منطلقاً من الناحية الفنية نفسها، ومن المعجم الاستعمالي أيضاً، مما دفع الفرزدق إلى الرد عليه مناصراً الأخطل بنقيضته:

يا ابن المراغة والهجا إذا التقت

أعناقُه وتماحك الخصمان

وأما على مستوى معارضة المعارضة فإن هذه

المناسبة تكاد تكون مصنوعة هادفة إلى معارضة

ميمية شوقي (نهج البردة):

رمى القضاء بعيني جوذر أسدا

يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

لما رنا حدثني النفس قائلة

يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

فاتخذ الشعراء الثلاثة من هذه القصيدة قالباً

شعرياً ومعجماً رفيع المستوى، واشتركوا معها دون

إخلال بالناحية الفنية، فقصائدهم مستقيمة غير

مختلة في بيت واحد من أبياتها على

مستوى القافية والوزن وحركة الروي،

والشكل التراثي الصارم الذي لا يسمح

بالانزياحات الحادة.

وأما الأصل الذي عارضه شوقي،

فهو قصيدة البردة، أو قصيدة

البرأة، أو الكواكب الدرية في مدح خير

البرية، إحدى أشهر القصائد في

«مديح نبوي» مدح رسول الله صلى الله

عليه وسلّم، كتبها «البوصيري» محمد

بن سعيد البوصيري في القرن السابع الهجري، وقد

أجمع معظم الباحثين على أن هذه القصيدة من

أفضل ما قيل في هذا الموضوع إن لم تكن أفضلها،

حتى قيل: إنها أشهر قصيدة مدح في الشعر العربي

بين العامة والخاصة، وقد انتشرت هذه القصيدة

انتشاراً واسعاً في البلاد الإسلامية، يقرؤها بعض



تحت تأثير الروح الموجودة في الأصل الذي عارضوه.

وزيادة على ذلك؛ فالنصوص الثلاثة التي عارض كل واحد من الثلاثة صاحبه فيها قد اتبعت الأصل العام في المعاني، فهي نصوص قائمة على المقابلة والاتفاق، لأن كل واحد منهم لا يختلف عن الآخر من حيث الدلالة الكلية، فالقصائد تقوم على



مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والحنين إلى تلك الديار العظيمة، والتهنئة بوصول صاحب النص الأول وهو الشاعر الدكتور عودة أبو عودة حاجاً، كما تعبر عن فرح عظيم تشع معانيه من مبنى القصيدة ومعانيها، ولما كان الأصل في هذا هو الائتلاف، فقد استقرت هذه القصيدة الشاعر حسن الأمراني والشاعرة نبيلة الخطيب إلى الإجابة بالمعاني نفسها، وبالروح ذاتها، وكان الاختلاف الوحيد بين هذين النصين والنص الأول هو نوع من العتب المحبب الذي هدف إلى إظهار الرغبة الشديدة في ذلك المكان.

وختاماً؛ فإن قصيدة «من ماء زمزم» قصيدة مشبعة بالروحانية والرومانسية المرتكزة على شعيرة الحج، وقد عبقت بالمظاهر الروحانية الدينية على الرغم مما يبدو من عنوانها الممتزج بالمادية، فهو يشير إلى بعض الماء الكريم الطاهر (ماء زمزم)، ومعه هذه المادية، فقد استطاع النص أن يحوِّله إلى ماء ينبع من وهج الروح بعيداً عن كونه ماء يمكن شربه وإطفاء العطش به، دعا الشاعر شاعرين آخرين، فأجاباه بالنغمة نفسها، متحدّين بقلب واحد، قلب محبي الله سبحانه وتعالى، وقلب من اشتاق لأعظم ما يمكن أن يشترك المرء إليه، فجاءت هذه الثلاثية الرائعة ■

المسلمين في معظم بلاد الإسلام، وأقاموا لها مجالس عرفت بمجالس «البردة الشريفة»، البردة الشريفة، أو مجالس الصلاة على النبي، فالبوصيري هو الأستاذ الأعظم لهذا الموضوع، على الرغم من أن أحد الشعراء قد خصّص ديواناً ضخماً لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الصرصري.

ومن القصيدة:

أمن تذكر جيران بني سلم

مزجت دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بِدَمٍ

أَمْ هَبَّتْ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاضِمَةٍ

وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفْ هَمَتَا

وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفَقْ يَهْمٍ

أَيَحْسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحَبَّ مِنْكُمْ

مَا بَيْنَ مَنْسَجَمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرَمٍ

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَرَقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ

وَلَا أُرْقَتْ لَذِكْرِ الْبَانَ وَالْعِلْمِ

مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِماً أَبَداً

عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

ومهما يكن من أمر الاختلافات في المعجم اللغوي بين هذه القصائد، فقد استطاع الشعراء الثلاثة بما يملكون من معجم تراثي رائع أن يصنعوا نصاً من النصوص الموازية القائمة على التأثير دون الانسياق إلى أجزاء الأصل المتمثل، وهو نهج البردة على الأرجح الذي ارتكز على عبقرية شوقي في معارضته البوصيري، وأنتجوا نصاً يمتاز بالقصدية في إنتاج نصّ ثلاثي، وكان الأصل في هذه المعارضة قصيدة الدكتور عودة أبو عودة، وإن كان الثلاثة قد وقعوا